حول اصرار البابا على عدم الاعتذار عن تصريحاته المسيئة للاسلام ونبيه

اسامة ابو ارشيد*

■ للمرة الرابعة على التوالي يتحاشى البابا الاعتذار عن تصريحاته المسيئة بحق الاسلام ونبيه الاكرم. ففي اللقاء الاستثنائي الذي جمعه يوم الثلاثاء (2006/9/26) مع سفراء 20 دولة اسلامية معتمدة لدى الفاتيكان، لم يقدم الحبر الاعظم–كما يصفونه–الاعتذار المطلوب منه، بما يتناسب وحجم الاهانة التي الحقها بالمسلمين. البابا، وعوضا عن ذلك اعاد التاكيد على اهمية «الحوار». ولكن احدا من اولئك السفراء لم يسأله عن اي حوار يتحدث.

اللقاء الذي استمر ساعة ونصف الساعة لم يكن فرصة فعلية لتبادل الآراء. فبعد القائه كلمته وقبل ان يتوارى عن الانظار، صافح البابا المشاركين الذين كادوا ان لا يتمكنوا من مخاطبته او تسليمه رسالة. وتفادت غالبية المشاركين الاعراب عن رايها في ختام اللقاء. وكان البابا بنديكت الـ16 قد القتبس في محاضرة له في جامعة المانية (2006/9/12) مقتطفا من حوار امبراطور بيزنطي مع عالم مسلم، يقول فيه الامبراطور ان محمدا (عليه الصلاة والسلام) لم يأت الا بما هو سيئ وغير انساني كأمره بنشر الاسلام بحد السيف.

وزعم البابا انّ العقيدة المسيحية تقوم على المنطق لكن العقيدة بالاسلام تقوم على اساس ان ارادة الله لا تخضع لمحاكمة العقل او المنطق. كما انتقد «الجهاد واعتناق الدين مرورا بالعنف» بلغة مبطنة.

لو كان البابا ومن ورائه الفاتيكان، يعلمون، او حتى يشكون مجرد الشك، بان الدول الاسلامية التي يمثلها اولئك السفراء العشرون، ستفكر، مجرد التفكير، بسحبهم، لما تجرأوا على الاصرار على غيهم. كل «اعتذارات» البابا السابقة، كانت اهانات مضاعفة ومتكررة. فالرجل لم يعتذر عما قال، وانما تاسف لردود الفعل الاسلامية التي احدثتها تصريحاته المسيئة. وكان لسان حاله يقول اعتذر اني خاطبت همجيتكم.

شخصيا لا اقتنع بتبريرات المبررين من ان البابا لم يقصد الاساءة للدين الاسلامي. فالرجل استعار نصا جوهره الاساءة ورد على لسان امبراطور بيزنطي في القرون الوسطى خلال حواره مع عالم مسلم، دون ان يستعرض او يورد رد العالم المسلم على تلك الاساءات. والغريب ان مؤلف الكتاب الذي اقتبس البابا منه نص العبارة المسيئة، اشتاط غضبا على فعلة البابا هذه والتي تنقصها الموضوعية، وذلك ان البابا اخرج النص عن سياقه. نص العبارة هذه، كان ضمن حوار طويل. ولم يخبرنا البابا ان الحاكم البيزنطي، كان مجرد تابع للسلطان العثماني بايزيد. اي بكلمات اخرى ان هذا الحوار يدل على مدى سعة وتعقل وتقبل المسلمين للحوار، حتى عندما يخرج عن سكته الصحيحة واخلاقياته المفترضة. ايضا لم يتحدث البابا عن الحملات الصليبية الاوروبية (الافرنجية) التي دشنتها الكنيسة الكاثوليكية قبل ذلك الحوار بعقود ضد العالم الاسلامي، وخصوصا منطقة بلاد الشام منه، والتي ذهب ضحيتها عشرات الآلاف من المسلمين والمسيحيين الارثوذوكس واليهود.

لم يحدثنا البابا، عن «دين الكنيسة الكاثوليكية» الذي لم تشهد الارض–حتى ذلك الوقت–اكثر افراطا منه في استخدام السيف وسفك الدماء. ابعد من ذلك، لم يحدثنا البابا عن محاكم التفتيش التي اقامتها «اسبانيا الكاثوليكية» حوالي وقت ذلك الحوار، ضد مسلمي ويهود الاندلس، وتهجيرها لعشرات الالوف منهم، وقتلها للكثير وارغامها للآلاف على التنصر. هذه الحقبة التي يريدنا رئيس الوزراء الاسباني السابق خوسيه ازنار ان نعتذر عنها، وكان القوط (الجنس الاسباني)، هم من جلب الانوار لتلك البقاع من الارض، وليس المسلمون. كما لم يحدثنا البابا عن محاكم التفتيش التي احرقت العشرات، بل المئات من العلماء، وما مثال العالم الفلكي الايطالي غاليلو الذي ادين من قبل محكمة الكرادلة في القرون الوسطى بتهمة قوله بدوران الارض حول الشمس عنا ببعيد. اكثر من ذلك، لم يحدثنا البابا في سياق محاضرته «الاكاديمية» جدا عن مباركة الكنيسة الكاثوليكية للاستعمار الاوروبي الحديث للعالمين العربي والاسلامي وقتل المئات من الالوف من المسلمين، واستعباد الناس ونهب اوطانهم، ولم يتركوها الا بعد ان تركوا فيها صواعق تفجير حتى لا تقوم لها قائمة مستقبلية. وفوق هذا وذاك، لم يحدثنا البابا «الموضوعي» عن ان القسطنطينية، تلك العاصمة التي جرى فيها الحوار الذي اقتبس بعضه الحبر الاكبر وغض الطرف عن بعضه الاكبر، نزلت تحت الحكم العثماني الاسلامي بعد عقود من ذلك الحوار، دون ان تهب الكنيسة الكاثوليكية لنجدتها، وذلك لان مذهب بيزنطة، كان ارثوذوكسيا. يبدو ان البابا ـ واشك في ذلك خصوصا وهو الاكاديمي المثقف جدا ـ لم يقرأ عن ما فعله الاوروبيون الكاثوليك في بيزنطة عندما دخلوها بحجة الدفاع عنها ضد الحصار العثماني الاسلامي، فما كان منهم الا ان اعتدوا وقتلوا واغتصبوا ونهبوا تلك البلاد الارثوذوكسية، الى الحد الذي دفع بأهل بيزنطة الى ان يقولوا ان عمامة المسلم البيضاء احب الينا من قبعة الكاردينال الحمراء، وذلك في اشارة الى الكاثوليكية. وماذا حصل بعد ان دخل المسلمون العثمانيون الى القسطنطينية؟ ان التاريخ ينقل لنا سماحة الاسلام وعظمته ونبل العثمانيين وبشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاتح القسطنطينية، السلطان محمد الفاتح، حيث لم ترق قطرة دم واحدة، ولم يعتد على حرم ولم تغتصب فتاة ولم تنهب اية ملكية. قارن ذلك بما فعله الصليبيون في حملاتهم المتوالية على الشرق الاسلامي وبما فعله الاوروبيون في استعمارهم للعالم الاسلامي. ويكفي المسلمين فخرا، انهم تركوا ريادة العالم مورثين معرفة وعلما انتشلت اوروبا من ظلماتها وجهلها وادخلتها عصر الانوار، في حين قادت اوروبا والغرب العالم الى عصر التبعية والنهب واستخدام اسلحة الدمار الشامل، في افق دمار الانسانية نفسها.

ترى هل كان العرب والمسلمون مسؤولين عن الحربين العالميتين الاولى والثانية واللتين خلفتا ملايين القتلى!؟ ترى هل نحن من استخدم السلاح النووي في اليابان ضد المدنيين؟ وهل يا ترى كانت النازية والفاشية ايديولوجيات من افرازات الاسلام!؟ الكل يعلم اجابات الاسئلة السابقة. وليس ثمة ما نخفيه ونخجل منه. واجب هنا ان اشير الى مسألة هامة، حيث ان القرآن الكريم يقدم لنا الدليل القاطع على ان هذا الدين، وهذه الامة دين وامة حوار. فالله عز وجل في كتابه العزيز ينقل لنا وقائع الحوار والمناظرة بين رب العزة جل وعلا نفسه وابليس، وذلك في آيات وسور كثيرة وبالتفصيل. انها اشارة هامة الى ان الاسلام دين لا يخشى المنطق والحوار والمناظرة العقلية، انه دين يعلو ولا يعلى عليه. ولا اظن ان هذه المعاني غابت عن البابا، او تغيب عنه، ولكنه الحقد الاعمى الذي يجعله لا يرى الامور على حقيقتها، او انه يراها ويظن انه قادر على اخفائها، ولكن هيهات ان يحجب غربال ضوء الشمس. البابا وكل من يتطاول على الاسلام ما كانوا ليتطاولوا لو انهم شعروا بان للاسلام قوة تحميه، ولكنهم يظنون انهم قادرون على استضعاف هذا الدين، خصوصا وهم يرون هذه الدول الكاريكاتورية، المسماة اسلامية، لا تكاد تلوي على شيء الا تثبيت كراسي انظمتها. ترى لو ان الشتيمة لحقت براس نظام عربي او اسلامي ماذا كانت ردة الفعل!؟ في بلادنا اشتم الله ودينه ورسوله ولا تخش شيئا، اما ان انتقدت نظاما فجزاؤك جهنم الارض التي ليس لها مالك يرحم.

ولا اريد ان اختم قبل ان اشير الى مسوغ يقدمه انصار الفاتيكان، من ان البابا لا يستطيع ان يقدم اعتذارا، وذلك لانه معصوم في المذهب الكاثوليكي، وبالتالي فهو قد اعتذر على طريقته وبما لا يمس هيبة عصمته. واقول هنا ان الفاتيكان والبابا السابق برآ اليهود من قتل المسيح عليه السلام ودمه، واعادا كتابة الانجيل، بل واعتذر البابا السابق عما الحقته الكنيسة الكاثوليكية باليهود عبر تاريخها الطويل من اضطهاد.

وابعد من ذلك فعل هذا البابا نفس الشيء عندما اعتذر عن انتمائه للنازية في فترة شبابه، فاين كانت العصمة هنا، ام ان العصمة تغيب عند التعاطي مع الاقوياء!؟ البابا بتصريحاته تلك، اكد انه مع اولئك النفر الذين يرون في الاسلام خطرا وعدوا، وهو بذلك قد شذ عن خطى سابقه البابا يوحنا بولس الثاني. ولكن ما لا يدركه هذا البابا ان الخبرة التاريخية تقول ان الاسلام عاد ونهض من تحت ركام الانقاض في كل مرة تصاعدت فيها حدة الاستهداف له. فبعد ان غزا الصليبيون المشرق الاسلامي، لم يكتف المسلمون بصدهم وطردهم، بل وطرقوا ابواب اوروبا المسيحية، وارغموها على دفع الجزية، وحاصروا العديد من عواصمها كفينا، فهل من معتبر؟

العالم اليوم يعيش استقطابا دينيا حادا، وهذا الاستقطاب لن يندثر الا بتولي العقلاء لزمام الامور، والسير بها نحو عالم مسالم.. عالم يتعبد فيه الجميع ربهم وفق عقائدهم دون خوف او انتقاص من الغير. اما النفخ في كير الحروب الدينية فلن يقود الا الى الدمار المحتم للانسانية جمعاء.

وبعد كل ما سبق اعيد الكرة الى ملعب البابا: ترى من ذاك الذي لم يأت الا بما هو سيئ وغير انساني ونشر امره بحد السيف!؟ وترى من ذاك الذي يعلي من شان المنطق ومن ذاك الذي يخضع العقل لسلطان من زعموا النيابة عن الله في ارضه!؟

* كاتب ومحلل سياسي مقيم في واشنطن

تهنئة وعتاب للرئيس اليمني

عارف ابوحاتم*

■ تهنئتي للرئيس علي عبدالله صالح بفوزه بولاية رئاسية اخيرة لن تخلو ابداً من نقاط عتاب هو الاقدر على استيعابها وفهمها، انطلاقاً من فطرته الانسانية القروية، الى الصفة الشرعية كرئيس لوطن وشعب، مروراً بخبرته السياسية، وقدرته في التعامل مع الازمات، وادارة المتناقضات، بصرف النظر عن ناتج هذه الادارة من وجهة نظر فرقاء العمل السياسي، فذاك شانهم.

لم يساور الشك غالبية اليمنيين بان الرئيس صالح سيترجل عن صهوة الحكم، ويقيم موسيقى عسكرية ويسلم الحكم سلمياً للشخص المنافس اذا ما فاز في انتخابات منصب الرئاسة، وهذا الشك ليس دافعه عدم ثقة بتسليم الحكم سلمياً، وليس عجزاً عن التغيير، او ان ادارة التزوير اقوى من ارادة التغيير، بل السبب يكمن في ان قناعة الناس لا تزال تتجه نحو الوجه الذي الفوه واصبح جزءا من يومياتهم طوال (28) سنة ماضية، لذا ففوز علي عبدالله صالح بولاية رئاسية اخيرة كان محسوماً من قبل ان يدعو الناخب الى التوجه نحو صناديق الاقتراع صبيحة العشرين من الشهر الماضي.

كان علي عبدالله صالح رئيساً شرعياً للبلاد طوال فترة حكمه منذ انتخابه من قبل مجلس الشعب التاسيسي في 17 تموز (يوليو) 1978م، ثم جدد شرعية بقائه في اعلى السلطة في 1983م عقب تقديم استقالته، ثم تكررت العملية في 1987، ثم عام 1990م بالتوافق بين الحزبين الرئيسيين المحققين لوحدة اليمن (المؤتمر الشعبي العام –الشمال، الحزب الاشتراكي اليمني – الجنوب).

ثم تجددت شرعية صالح في 1995م عند انتخابه من قبل البرلمان عقب حرب الانفصال، ثم في ايلول (سبتمبر) 1999م في اول انتخابات رئاسية مباشرة في اليمن، ثم هل نتوقع ان يخسر الرجل الفوز بعد كل هذه السنوات، وعلى يد شخص لم يكن معروفاً لدى عامة الناس، فمرشح (المشترك) رجل له حضور في ذاكرة الصفوة في المجتمع، من خلال مواقفه النزيهة والوطنية، رجل ظهر على عامة الناس لاول مرة في الثاني من تموز (يوليو) الماضي مرشحا باسم احزاب اللقاء المشترك للانتخابات الرئاسية، في مقابل رجل يعمل في واجهة ورئاسة البلاد منذ 28 سنة!

فاز بوش الابن برئاسة الولايات المتحدة في مواجهة آل غور نائب الرئيس الديمقراطي بيل كلينتون، مع ان الاول كان مجهولاً مغموراً يعرف باسم (دوبيا) العابث السكير، وجاء اسمه مرشحاً عن الحزب الجمهوري كآخر الاوراق، بعد اعتذار ديك تشيني (نائب الرئيس حالياً)، ودونالد رامسفليد (وزير الدفاع)، وكولن باول (وزير الخارجية السابق)، فاز (دوبيا) المجهول بنسبة (51 %) من اصوات الناخبين وخسر من كان نائباً للرئيس، ومعروفاً للجميع.

كان من الممكن ان يحدث شيء مماثل في اليمن لو ان عمر ديمقراطيته يقترب من الـ200 عام، كما هو شان الديمقراطية الامريكية.

ولو ان مستوى الوعي لدى الشعب اليمني، يماثل نظيره الامريكي.

ولو ان نسبة الامية الاكثر من (60 %) لدينا تتحول الى صفر بالمائة كحال الامية الامريكية، او حتى الفلسطينية.

ولو ان القضاء والاعلام والتشريعات وخالد الشريف والجندي، و...

ولو ان الجهاز المركز للرقابة والمحاسبة، واللجنة الوطنية لمكافحة الفساد، ومجلس النواب، و..

ولو ان وزارة المالية والبنك المركزي، ولجنة شئون الاحزاب، و...

ولو ان منظمات المجتمع المدني خالية من امراض الحزبية والابتزاز والمتاجرة باسم المجتمع، و.. ولو ان المراة اليمنية تعرف قيمة صوتها، والمجتمع معافى من ثقافة الذكورة البحتة، و...

ولو ان المؤتمر الشعبي العام قادر على انتاج بدائل، وكاست ليس فيه (مالنا غير علي)، و...

ولو ان شيئاً من هذا حدث لكنا بالامس نستمع للرئيس اليمني الثاني عشر وهو يؤدي اليمين الدستورية!!

لكن بما ان حالنا هذا هو، وواقعنا لا يزيد طينه بلة غير عجز وفضائح المعارضة، فقد وجدنا انفسنا مع ملايين من الشعب ننشد: (مالنا غير علي) بحماس ليس له ما يبرره.

وبما ان الرئيس صالح سيظل في منصبه من دون خوف، وبارادة الشعب، وبشرعية دستورية غير منقوصة، فلماذا حدثت كل تلك التجاوزات في حملته الانتخابية وهو الغني عنها؟!!

وهذا ما سأقف امامه قارئاً ومعاتباً ومخاطباً الرئيس صالح:

اولاً: تابعت وقرات واستمعت –عن عمد– لكل تصريحات منافسك مرشح المشترك للرئاسة المهندس فيصل بن شملان، وكان كلما سئل عنك يقول: الاخ علي عبدالله صالح مرشح المؤتمر الشعبي العام، يصفك بـ(الاخ) وانت تصفه بـ(المستاجر).

يا سيدي هذا الرجل لم ياتوا به من سريلانكا او كينيا ليترشح للرئاسة في اليمن، وليس من قوات المرتزقة، ومنذ انطلاق حملته الانتخابية في الـ(23) من اب (اغسطس) وحتى المؤتمر الصحافي الاخير في الـ(26) من ايلول (سبتمبر) الماضي لم تصدر عنه كلمة نابية، او عبارة غير لائقة، حتى وهو يتحدث عمن وُصف بالارهابي (حسين الذرحاني)، قال: اعتذر ان اقول انه ضايقني في حراسته بشكل مريب، الى حد ان اضطررت ان اوقف سيارتي ذات مرة وانزله منها.

ويجب ان نلاحظ هنا ان بن شملان يتحدث عن الرجل الذي فعل به ما لم يفعله الخليل ابراهيم باصنام قومه، ويقدم كلامه بـ(اعتذر).

ثانياً: الرجل الفاضل المهندس فيصل بن شملان لا يقل وطنية ونزاهة عن كثير من النماذج اليمنية العظيمة، امثال عمر الجاوي، وجار الله عمر، ويحيى المتوكل، ولندع سيرته تحدثنا عن شيئين اثنين:

الاول، استقالته من منصبه في اعلى وزارة النفط في آذار (مارس) 1995م بسبب عدم تنفيذ تصوره وخطته للعمل، وهو الخبير في اقتصاديات النفط، لم يستطع العمل مع نافذين ووسطاء، فقرر الانسحاب بهدوء، والعودة الى قريته (السويري) بحضرموت، اليس في ذلك موقف نزيه، وهو القادر على ان يهبر هبرته ويرحل؟

الشيء الآخر استقالته من عضوية مجلس النواب في العام 2001م احتجاجاً على تمديد المجلس لنفسه لسنتين اخريين، وربما القارئ سيعرف لاول مرة ان عضوية اليمن مجمدة في تجمع دول الديمقراطيات الناشئة، بسبب تمديد البرلمان اليمني لنفسه.

(عندما رأى الرئيس كلينتون ان راتب الرئيس الامريكي لا يتناسب مع حجم الدور الذي يقوم به قرر رفع هذا الراتب من 230 الف دولار الى 400 الف دولار سنوياً على ان ينفذ القرار ابتداءً من الرئيس الذي يليه، لم يقرر لنفسه كما فعل البرلمان اليمني).

وهنا اسال: الم يكن بن شملان هو الاكثر وطنية وحرصاً على سمعة الوطن داخل هذا المجلس (الموقر)!!

وباسف بالغ نجد من انصار الاخ الرئيس من وصف الاستقالتين بالتهرب من المسؤولية، والخيانة للوطن، والانفصام في الشخصية، بل وصل الى حد وصف بن شملان بالفاسد والعابث بالمال العام!!

وتلك الاوصاف الملصوقة برجل مثل «فيصل» لم تزد الرئيس صالح شيئاً، فقد كان غنياً عنها، وكارهاً لها، لولا جهالة وسوء تقدير بعض انصاره.

ثالثاً: رجل بحجم وقامة وسن المهندس الفاضل فيصل بن شملان (72) عاماً هل نتوقع منه ان يترشح للرئاسة طمعاً في مغنم، او بحثاً عن وجاهة، ومكانة، او تخطيطاً لتسليم البلاد لقوى الخارج – كما أُشيع – او آلية لنهب البنك المركزي، لا، حاشاه، وحاشاك سيدي الرئيس من ان تفكرا بشيء من هذا.

ما دفع بن شملان للترشح هو ما شهده من حالة موات بطيئة للديمقراطية اليمنية، ونظر الناس للحاكم على انه ظل الله في ارضه، لا يجب حتى الحديث عنه، فضلاً عن تغييره، ثم تنبيه المواطن الى قوة سلاح (الصوت الانتخابي)، وهذا ما حدث.

فالعجلة الديمقراطية في اليمن شهدت قفزة نوعية على مستوى المنطقة العربية، ومنصب رئيس الجمهورية تحول في نظر الناس الى درجة وظيفية يؤديها رجل الشعب قادر على اسقاطه في اي لحظة، والاهم من كل ذلك ان بن شملان تحمل وتلقف كل ما قيل من السلطة والمعارضة من اجل التأسيس لثقافة الديمقراطية، ووضع المداميك القوية لمرحلة وجيل ومستقبل سياتي.

فألف تحية، وشكر، وانحناء، واجلال، واكبار، وامتنان للرجل العظيم المهندس فيصل بن شملان، لانه دفع بعجلة الديمقراطية اليمنية الى مراتب متقدمة، ولانه اسس لمرحلة قادمة، ولانه ظل صامداً متماسكاً في وجه كل ما قيل، ولانه كشف هشاشة السلطة والمعارضة، ولانه اسقط اقنعة كثيرة كنا مخدوعين بها، ولانه اظهر وجوهاً جديدة نحن بحاجة اليها.

والف تحية وشكر وتهنئة للرئيس علي عبد الله صالح لفوزه اولاً، ولاخضاعه منصب الرئاسة للمنافسة الديمقراطية ثانياً.

اشارة حق:

الاخ علي عبدالله صالح رئيس اليمن شعباً وارضاً نود ابلاغكم بان الواجهة الرئيسية لموقع وزارة الدفاع الاخباري (سبتمبرنت)، تظهر في اعلاه صورة لرجل شريف من ابناء شعبك هو المواطن فيصل بن شملان، ومن خلف صورته يطل «حسين الذرحاني» بوجه لئيم، وفي اسفل الصورة كُتب : صورة الارهابي حسينّ الذرحاني. ولو اراد الزملاء في (سبتمبرنت) صورة منفردة للذرحاني لما عجزوا عن ذلك.

فارجو ان تأمروا بازالة تلك الصورة، حتى لا نجرح مشاعر 1,173,075 مواطن .

* صحافي وكاتب من اليمن

الحزب الحاكم في مصر وربع قرن من الإخفاقات

د. عمار علي حسن*

■ الفارق بين ما يقوله الحزب الوطني الحاكم في مؤتمراته وتجمعاته وبين الواقع المعيش يساوي تماما الفجوة الفاصلة بين طائرة «الشبح» وأجنحة عباس بن فرناس. ففي كل مرة ينادي الحزب أتباعه إلى مؤتمر يكون قد جهز حزمة جديدة من الأكاذيب، يطرحها في شكل أوراق عمل، أو خطب مفعمة بالبلاغة، لدغدغة المشاعر، واستدرار التعاطف. وتبلغ الحيل أقصاها حين يعتذر الحزب، الذي تسوق لجنة سياساته الحكومة كيفما أرادت، عما يسميه تقصيرا، وما أكثره، وحين يعد برتق ما تمزق، وما أوسعه، ووصل ما انقطع، وما أبعده، والنهوض بما خمد واستكان، حتى اطمأنت البلاد إلى الخذلان والذل، والقعود والركود.

وبدلا من أن يبذل الحزب جهدا فائقا كي يتحول إلى «حزب سياسي» بالمعنى المتعارف عليه في الدول الديمقراطية، وليس مجرد زمرة من المنتفعين تتحلق حول الرئيس ونجله، يمضي الحزب، سنة بعد سنة، في ممارسة مغالطاته، من دون أن تلوح في الأفق أي علامات للمراجعة والتوبة، فيتحدث عن «إنجازات» تمت، ويتعهد بأخرى ستأتي، ويواصل سعيه المكشوف لتوريث مصر، من خلال قنوات ظاهرها قانوني شرعي وباطنها إجبار وتجبر سياسي، فيجند كل شيء، الحجر والبشر، في سبيل إنجاز هذه المهمة التي لن يؤدي تحقيقها إلا إلى مزيد من التراجع والتدني، في المجالات كافة، وعلى كل الصعد.

وقد تعودنا من هذا الحزب، الذي يمثل عصب النظام الحاكم، نقض العهود، ونكص الوعود، والحنث بالقسم. فكم من مشروعات وهمية أعلن عنها، وجند لها أتباعه وذيوله من الكتاب والصحفيين والإعلاميين، فأسهبوا في تبيان التفاصيل، والإطراء الذي لا حد له على من يوجه ويرشد ويفكر–وهو بالطبع الرئيس–ثم انتهى كل شيء إلى سراب في سراب. فمن مشروع تسديد ديون مصر، الذي كنا نتبرع له من مصروفنا البسيط ونحن طلاب في المرحلة الثانوية، إلى مشروع «الألف يوم» الذي مات بالسكتة القلبية بعد شهرين من إطلاقه، إلى مشروع توشكى، الذي أثبت العلم والتجربة فشله، إلى مشروع الخصخصة غير المدروس، الذي يتم لحساب أصحاب الحظوة من رجال الأعمال والسماسرة وتجار السياسة، ويدفع الدولة لتنسحب كسيرة من مجال الخدمات، لتتحول إلى دول جابية للضرائب، حامية للفساد، ظالمة للعباد. والآن يتحدثون عن مشروعات وهمية أخرى ومنها: «الألف مصنع» و«المليون فدان» و«الأربعة ونصف مليون فرصة عمل» ... الخ.

وفي مؤتمرات الحزب الحاكم يتحدثون عن «وثيقة المواطنة» فلا يزداد المصريون في بلدهم إلا غربة أمام جهاز الشرطة ومباحث أمن الدولة، ودهاقنة الجهاز البيروقراطي، وترزية القوانين الجائرة، وفي مطلعها قانون الطوارئ.

وفي مؤتمرات الحزب يبدون تعاطفا كلاميا مع محدودي الدخل، فترتفع الأسعار، وتتزايد معدلات البطالة، ويتحول فلاحي الريف إلى أجراء وعبيد عن الملاك في ظل القانون الجديد، ويتشرد مئات الآلاف من العمال، ويهيمون على وجوههم في الشوارع المزدحمة، بعد أن أكل الفراغ المهين أرواحهم.

وفي هذه المؤتمرات يتحدثون، وبجرأة يحسدون عليها، عن الاهتمام بالصحة، فتنتشر الأمراض في أجساد الملايين كل سنة، جراء الأغذية الفاسدة، والمياه الملوثة، والهواء المشبع بالعوادم، والكيماويات والبذور المسرطنة، في وقت تعاني فيه المستشفيات الحكومية من نقص حاد في كل ما يحفظ للواحدة منها لقب «مستشفى»، وليس مجرد «دكان حلاق صحة»، يفتقد حتى إلى الإسعافات الأولية.

ويستفيض الحزب كلاما عن النهوض بالتعليم، فتزداد فصول المدارس الحكومية تكدسا بالتلاميذ، ويجد نصفهم فقط مقاعد، وتزداد المناهج التعليمية تخلفا، لأنه لم يراع في اختيارها سوى إرضاء المقربين من مؤلفي المناهج، والذين لا هم لهم سوى نهب المكافآت المرصودة لهذه العملية. كما تزداد طريقة التعليم سوءا، في ظل الإصرار على مخاطبة أردأ الملكات العقلية، وهي الذاكرة.

وفي المؤتمر الأخير يتحدث الحزب عن «طاقة نووية سلمية» بعد سنوات من إهمال متعمد، مع سبق الإصرار والترصد، لهيئة الطاقة الذرية وملحقاتها، ليتحول علماء الذرة المصريين إلى موظفين، يعانون من بطالة مقنعة. ويتحدث الحزب عن «مقاومة» مشروع الشرق أوسط الجديد، وتفعل السلطة على الأرض كل ما يمكن هذا المشروع من التحقق، مادام هذا لن يؤثر على المناصب والمواقع والمقاعد والعروش والثروة.

وسنة وراء سنة مع «الفكر الجديد»، الذي أتحدى أن يعرفه لنا المتنطعين به، ومؤتمر وراء مؤتمر، مع نظام بات إصلاحه يعني إزاحته، والحزب الحاكم، الذي عجز عن حشد بضع مئات من المتظاهرين، يتعامل مع المصريين بوصفهم إما قوم بلهاء أغبياء، أو شعب فقد الذاكرة، أو أمة من الأغنام، أو من الأموات، فيحدثهم عن «الإنجازات» العظيمة ... والتي سنعرضها بالأرقام في مقال قادم، إن شاء الله.

وحتى لا يقال إن نقد أداء النظام مجرد كلام مرسل، أو بلاغة فياضة، أو مشاعر منجرفة لا يحدها تفكير، ولا يحكمها عقل، أعرض هنا بالأرقام ما آلت إليه مصر بعد ربع قرن من حكم مبارك، لنرى إن كان نجله سيرث ـ لا قدر الله ـ دولة قوية مرهوبة الجانب، أم بلد ضعفت شوكته، وتراجعت مكانته، ولا يفيق من المشكلات والمصائب والنوائب، وكل ما تحقق له في ربع قرن هو اكتمال البنية التحتية، التي كانت ضعيفة ومتهرئة.

وأول هذه الأرقام هو ما تمنحه لنا دراسة أعدها البنك الدولي مؤخرا أظهرت أن 44 % من المصريين يعيشون على أقل من دولارين في اليوم، وأن أكثر من ثلاثة أرباع هذه النسبة لا يحصل أصحابها على أكثر من دولار واحد. وهناك دراسة أعدها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية أظهرت أن نحو 40 % من الأسر المصرية تستمر على قيد الحياة بفضل الإعانات التي تتلقاها من الأقارب وبعض الموسرين. ولولا أكثر من 14 ألف جمعية خيرية تقوم بدور كبير في التراحم والتطبيب الاجتماعي، لخرج الجوعى والعرايا على هذا النظام من سنين.

وعلى النقيض، وحتى نفهم أسباب هذا الفقر، يبلغ حجم الفساد في مصر 69 % من حجم المعاملات التي تتم في البلاد، حسب تقدير «منظمة الشفافية الدولية» التي وضعت مصر في المرتبة 77 في مجال الشفافية، من بين 146 دولة في العالم، درستها وفحصتها المنظمة. في الوقت نفسه هناك إحصاءات تقدر حجم الأموال المهربة من مصر على مدار العقدين الماضيين بأكثر من 300 مليار جنيه.

وحسب الإحصاءات التي أوردها موقع «سي آي إيه» الأمريكي ضمن الملفات الشاملة التي يعدها عن دول العالم، فإن العجز في الموازنة عام 2005 بلغ 7ر39 مليار دولار، فيما بلغ العجز في الميزان التجاري نحو 9,67 مليار دولار. أما الديون الخارجية فوصلت إلى نحو 35,26 مليار دولار. ووصلت نسبة البطالة إلى 9,5 %، ونسبة التضخم إلى 4,9 %، وقد تسلم مبارك مصر وسعر الدولار الأمريكي لا يزيد عن 85 قرشا، ليقفز الآن إلى 5,74 قرشا.

وبالنسبة للأحوال الصحية فقد تضاعف مرضى السرطان 8 مرات، جراء الغذاء الفاسد والماء الملوث والهواء المشبع بالعوادم والكيماويات المسرطنة، ويعاني 20 % من المصريين من التهاب الكبد الوبائي، و10 % يعايشون مرض السكر، ونسبة مرضى الفشل الكلوي في بلادنا هي الأعلى في العالم أجمع. ومصر واحدة من ست دول لا تزال تعاني من شلل الأطفال. ويقول بعض الأطباء والدارسين النفسيين أن 20 مليون مصري يعانون من الاكتئاب، جراء الظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة.

أما الأحوال الاجتماعية فإن معدلات الطلاق وصلت إلى 33 % وأغلبها يعود إلى ضيق ذات اليد، أما العوانس فقد وصلوا إلى أكثر من 9 ملايين عانس. ويموت في حوادث الطرق أكثر من ستة آلاف شخص ويصاب نحو 23 ألف آخرين. ويقدر عدد المهاجرين من مصر نحو 5 ملايين، من بينها 820 ألفا من ذوي الكفاءات، يتضمنون 2500 في تخصصات نادرة. وهناك نحو 6 ملايين مصري طالبي هجرة، أغلبهم إلى الولايات المتحدة وكندا. ونسبة الأمية في مصر تصل إلى 27 %، و7 % من الأطفال لا يدخلون المدارس بسبب الفقر غالبا، وأكثر من هذه النسبة تتسرب من التعليم. ويزيد أطفال الشوارع عن 100 ألف طفل، ويقطن أكثر من ثلث المصريين في مناطق عشوائية، بدأت الحكومة في تطويرها، ونتمنى أن تنجز هذه المهمة، حتى لا تزيد المشروعات الفاشلة واحدا.

وعلى التوازي فإن مصر، التي تعيش في حال طوارئ منذ ربع قرن، جاءت في ذيل القائمة في أحدث تقرير لمنظمة «فريدوم هاوس» عن الحريات السياسية والمدنية لعام ,2006 ورسبت مصر في مؤشر الديموقراطية، وفقا للدراسة التي أعدها مركز المعلومات التابع لمجلة «الإيكونوميست» الشهيرة عن الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، إذ حصلت مصر على 4,3 من مقياس 10، وفيما يتعلق بحرية الصحافة جاء ترتيب مصر الـ143 ضمن 167 دولة.

* مدير مركز أبحاث ودراسات الشرق الأوسط ـ القاهرة

الكتاب العرب وعقدة الكبر تجاه موريتانيا

محمد مختار عثمان*

■ لا نفهم نحن اهل موريتانيا سر «المديح» الذي يكيله لنا بين الحين والاخير كتاب مصر العظيمة، ام الدنيا وارض الكنانة، كبيرهم وصغيرهم. فبعد ان ارجع الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل، في مقابلة سنة 1982، فشل الجامعة العربية الى «قبولها دولا غير عربية مثل موريتانيا والصومال وجيبوتي» اطل علينا في قناة الجزيرة سنة 2003 ليقول اننا مصابون بلعنة الجغرافيا. وبعد محمد حسنين هيكل ها هي هويدا طه تكتب لنا في «القدس العربي» بتاريخ 28 ايلول (سبتمبر) 2006 انطباعات عادت بها من موريتانيا.

واذ نحترم هذه الانطباعات وهذه المشاهدات فاننا نجد لزاما تصحيح بعض المغالطات التي كثيرا ما نقرؤها عن بلادنا.

1. موريتانيا بلد فقير بسبب حكامه الفاسدين:

ما يجهله من يكتبون هكذا مسلمات ان موريتانيا دخلت العالم غداة استقلالها سنة 1960 وهي تحت الصفر من حيث مستوى التنمية، 5 جامعيين، ثانوية واحدة، لا طرق لا بنية تحتية، لا مستشفيات.. ولا حتى عاصمة (اول اجتماع وزاري التأم تحت خيمة). سكان نواكشوط كانوا يومها لا يتجاوزن الثلاثمئة نسمة، هكذا تركنا المستعمر الذي تقترح الكاتبة عودته الينا حتى يطورنا بل تتحسر على رحيله. اليوم بعد 46 سنة من الاستقلال استطعنا رغم قلة عددنا وعددنا ان نبني دولة بشبكة طرق تصل كل المدن ببعضها، رغم طول المسافات وشساعة المساحة، نملك موانىء ومطارات ومستشفيات ومدارس ومعاهد عليا وجامعة. بعد ثلاث عشرة سنة من الاستقلال اصدرنا عملة وطنية وأممنا مناجمنا ليس بقرار ثوري بين عشية وضحاها ولكن جراء حركة شعبية دامت عدة سنين.

مناجم الحديد تستغل في عمق الصحراء بخيرات موريتانية وتصدر عن طريق اطول قطار في العالم، هذا القطار الذي يعبر سكون الصحراء منذ ازيد من اربعين سنة لم يخرج يوما عن سكته ويوقع مئات القتلى.

نجاح تجربة التنمية الموريتانية يكمن في اعتماد المواطن على عمله فالثروات الطبيعية التي يتحدث عنها تبسيطا الكثير من المعلقين تحتاج استثمارات ضخمة لاستغلالها وهو ما عقلته موريتانيا فلم تجعل اقتصادها ريعيا كما هي الحال في بلاد اخرى.

واجهت موريتانيا جفافا قاحلا اودى بثروتها الرعوية والزراعية التي كانت تشكل 90 % من اقتصاد البلاد سنة 1959 واستطاعت التغلب على اثاره من مجاعات، وهجرة ريفية وبطالة.

بسبب الجفاف وما نجم عنه من هجرة ريفية عانت مدن البلاد وخاصة العاصمة نواكشوط من النمو الحضري العشوائي فانتشرت احياء الصفيح في ضواحي المدينة المصممة اصلا عند انشائها لاستيعاب الف نسمة سنويا، اقصى التقديرات سنة 1960 كانت تتوقع ان يناهز سكان العاصمة العشرين الفا بحلول سنة 1980 التي تجاوزوا فيها واقعا لا توقعا المئتي الف نسمة.

كاتب هذه السطور ابن بادية فيها منبته ومولده ونشوءه وتربيته، عرف احياء الصفيح وسكنها ابان مراهقته وعايش في شبابه الموشك على الانته